خطر الغفلة عن التوبة

كم من إنسان ألهته نفسه الأمّارة بالسّوء عن التّوبة بالتّسويف، وفرّط في طاعة الله وضيّع واجباته حتّى جاءه الموت بغتة من حيث لا يدري، وفاته الرّجوع من المخالفات والمعاصي إلى الله تعالى، ومن الغفلة إلى الذّكر، كما قال عزّ وجلّ عن مثل هؤلاء: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝1 حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝2 كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝3 ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝4﴾ [التكاثر: 1-4].

ويحدثّنا القرآن الكريم عن ندم الغافل وتحسّره يوم لا ينفع النّدم، فيقول سبحانه: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُّ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ۝56 وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ﴾ [الزمر: 56-57].

ويتمنّى عودة أخرى إلى الدّنيا ليؤمن ويحسن العمل، ولكن لا جدوى من ذلك، ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝58 بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝59﴾ [الزمر: 58-59].

وعن خطورة التّسويف وتأخير التّوبة يقول أبو حامد الغزالي في إحياء علوم الدّين: «ومن ترك المبادرة إلى التّوبة بالتّسويف كان بين خطرين عظيمين:

أحدهما: أن تتراكم الظّلمة على قلبه من المعاصي حتى يصير رينًا وطبعًا، فلا يقبل المحو.

الثّاني: أن يعاجله المرض أو الموت، فلا يجد مهلة للاشتغال بالمحو».

والتّائبون على ثلاث طبقات: فأدناهم التّائبون من الكفر، وأوسطهم التّائبون من المعصية، وأعلاهم التّائبون من الغفلة.

وسئل ذو النُّون ~ عن التّوبة فقال: «تَوْبَةُ الْعَوَامّ مِنْ الذُّنُوبِ، وَتَوْبَةُ الْخَوَاصِّ مِنْ الْغَفْلَةِ».

وقال عَبْد اللَّهِ بْن عَلِي بْن مُحَمَّد التميمي ~: «شَتَّانَ مَا بَيْنَ تَائِبٍ يَتُوبُ مِنَ الزَّلَّاتِ، وَتَائِبٍ يَتُوبُ مِنَ الْغَفَلَاتِ، وَتَائِبٍ يَتُوبُ مَنْ رُؤْيَةِ الْحَسَنَاتِ».